الرئيسية > ثقافة

زياد الرحباني: هل نشر مُكرَهاً ديوانه "صديقي اللّه"؟

محمد حجيري | الخميس 2025/07/31



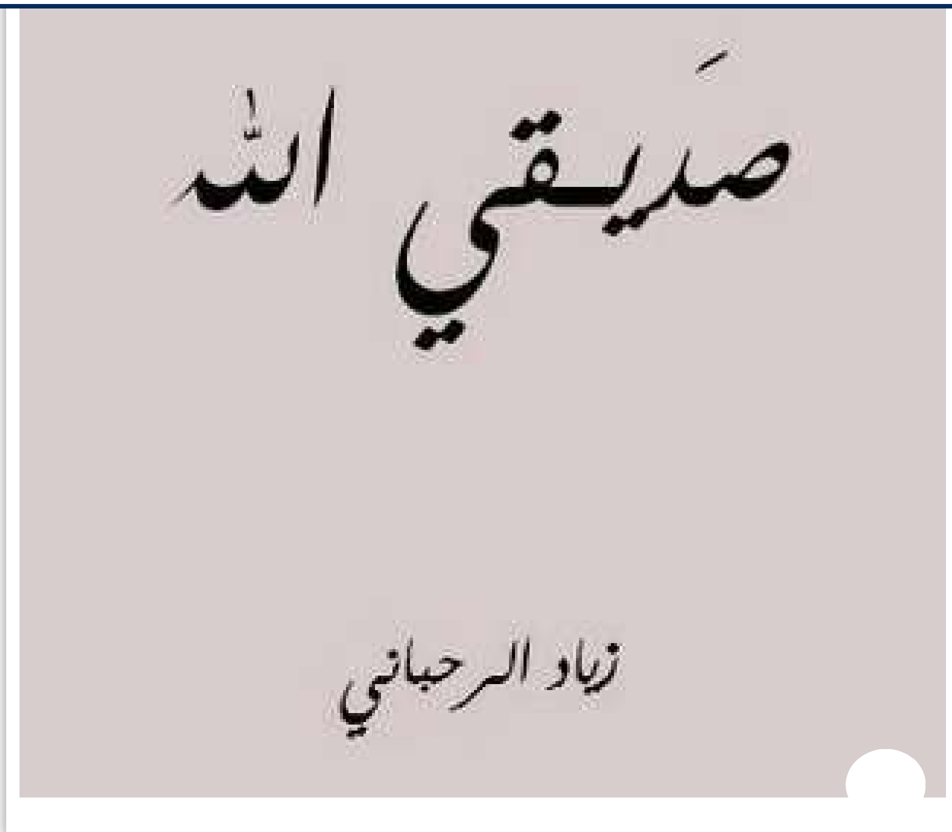
"إن لم أكن فرِحاً/ لا أستطيع أن أصلي/ ما مِن مرةٍ صليت/ إلا وفي قلبي عصفورٌ يلعب/ وغصن يلوح"

كثر لا يعرفون أن الفنان زياد الرحباني الذي سخر في إحدى مسرحياته، من الشعر بقصيدة تهكمية تقول: "هوت سنونوتي على الرماد/ تناثرت صورًا/ وأوراق اعتماد/ كانت الساعة/ الرابعة وقتئذ/ وكنت أحادث/ التنين في أسفل الواد" (*)، هو نفسه، وقبل أن يسلك طريق الموسيقى والجاز والبيانو على نحوٍ محترف، كتب ديوانًا شعريًا بعنوان "صديقي اللّٰه" في سنوات طفولته.

لكن ما قصة هذا الديوان، وهل نشره زياد مُكرهًا، أم إنها بلبلة الحكاية؟ يقال إن عاصي الرحباني اكتشف القصائد ونشرها في جريدة "النهار" تحت عنوان "صديقي اللّٰه" من دون علم زياد، الأمر الذي أحرجه كثيرًا في مدرسة "سيدة الجمهور" بين زملائه. ثم أصدر عاصي القصائد في كتاب على نفقته في أب 1971، مع تقديم للكاتب يقول بكثير من الاقتضاب: زياد الرحباني ولد في انطلياس العام 1956، يتابع دروسه في مدرسة السيدة، الجمهور، وسجل هذه الكتابات سنتي 1967، و1968. وقال زياد لمجلة "الشبكة" (عدد 814 بتاريخ 30 آب 1971): "لقد شاهد والدي ما كتبت وصحح بعض الأخطاء، وأطلع بعض الأصدقاء على إنتاجي فشجعوني على النشر". وكتبت "الشبكة": "زياد هو الغرسة البضة في أرض الرحابنة،... يتابع دراسته في مدرسة الجمهور، بارع في مادة

يحب قراءة الشعر القديم والحديث، ويحب شعر سعيد عقل، ويقرأ طاغور... وأصدر منذ أيام كتابه من الشعر المنثور، وهو "محاولات طفولية تبشر بالخير"، وفيه يعرّف زياد اللّٰه بأنه "الضمير، هو المحبة".

شيء ما يذكرني، في الوقت الذي أبحث فيه في طفولة زياد، بطفولة بشير الجميل وعلاقته بوالده بيار الجميل، ووالدته جينفياف، وتمرده و"أسطورته"، وبحثه عن عالمه. وهما، أي بشير وزياد، شخصيتان قابلتان لتدبيج الكثير من الحكايات، وليس غريبًا أن يكتب إيلي خوري مؤسس موقع "ناو" في وداع زياد "كنت قلّلك بَطَل لبنان لازم يكون نصف بشير ونصف زياد".



جملة من التفاصيل حصلت مع زياد في عمر المراهقة، ومن بينها أنه وقف وهو في الرابعة عشرة من العمر متحديًا والده معلنًا رغبته في الانضمام إلى حزب الكتائب اللبنانية، صارخًا في وجه عاصي: "أنا كتائبي وحاسس هالشي بدمي وأنه بموت من أجل بيار الجميل (الأب)".، فما كان من والده إلا أن نصحه بجمع البزاق في يوم ذلك اليوم الماطر، ويشمّه ويشمّ الوطن.

وفي كتابه "هات العمر من الأول"، يروي المسرحي الراحل أسامة العارف، أنه حين زار عاصي ومنصور في أواخر الستينيات في مكتبهما في حرج بدارو للتعرف اليهما، "أصرّ منصور على إنهاء اللقاء بتقديم كتاب صغير بغلاف أصفر، هو ديوان من تأليف زياد

عمره يتعثر بمشيته، خجول في خطوته، وسلّم بسرعة وعاد إلى الغرفة من حيث أتى، هذا الأسلوب في طباعة نص شعري وهو مراهق وتعريف الناس إليه بوصفه شخصا متفردًا غير عادي، لا أعتقد أن زياد كان يريدهما، بل أُكره على القيام به، وهو شيء لم أعرفه إلا عند حضوري مسرحية "شي فاشل" حيث يقوم أحد الممثلين بتجسيد شخصية العم منصور في تقديم قريبته الواعدة إلى إحدى الصحافيات والإشادة بعبقريتها في تعبير ساخر من زياد عما كان يقوم به الأخوان رحباني من تقديم لمن أعدوه للدوحة الرحبانية"...

وفي أكثر من مقابلة يتحدث زياد كيف تمكن من الهرب من سلطة البيت وهو بعد في الرابعة عشرة من عمره، وكانت الخلافات بين فيروز وعاصي لا يمكن احتمالها، مناوشات يومية وعلاقة تشوبها غيرة الأب السليط اللسان: "كان يكفي أن يندمج أحد الحاضرين مع جملة غنائية تؤديها فيروز، وأن يعبّر عن إعجابه بعبارة مثل "الله الله"، لتتحوّل الليلة إلى كابوس مزعج لـ"جارة القمر"، رغم أنها لم ترتكب ذنبا" (بحسب موقع الجزيرة). تلك المناوشات، التي خيمت على علاقة والديه، دفعت زياد المراهق إلى الهرب من بيت الرحابنة، الذي كان يعجّ بالمسرح والشعر والموسيقى، إلى بيت صديقه ورفيق مسيرته الفنية جوزف صقر بحثًا عن ملامح مسيرته الخاصة.

وبالعودة إلى كتاب "صديقي الله"، فهو يتضمن 49 نصاً، ويمتد

أنا صغير ولسادس مرة أطفئ الشموع
ما أحلى الحياة عند سادسة إطفاءة شموع
ما أعرف؟ لا أعرف شيئًا
لا أعرف إلا أّن لي بيتًا بجدران
سريرًا وصورتين خبزًا وماء

والقصيدة الثانية يتحدث فيها زياد عن صديقه اللّٰه، حيث أخبروه بأن اللّٰه معه في كل مكان وكل وقت:

وقالوا يوماً: إن اللّٰه صديقي
ورحت أفتش عن صديقي
بين الزهور، في الأحراج، في الأشجار
وراء الصخور المورقة، وخافت مني العصافير وهربت
ترى صديقي كالعصافير خاف مني وهرب؟
وسألتهم؟ صديقي هل يخاف؟
قالوا: يخاف ألا تحبه!
وقلت: أين هو؟
وقالوا: في كل مكان!

يخاطب زياد اللّٰه ويناجيه كأنه أمامه وأحيانًا يناديه للعب، إذ يقول:

إن لم أكن فرِحاً
لا أستطيع أن أصلّي

يخاطب زياد صديقه ويقترح عليه أن يأتي لسرقة الأحراج، لكنه ينصحه أن يأتي قبل موسم الشتاء وإغلاق الطرق:

إذا جئت يا صديقي، فنذهب إلى الأحراج
نذهب إليها نسرقها، نقول إنها لنا، لي ولك
لا أحد يسمعنا، إذا أردت أن تأتي فتعال
قبل الشتاء، في الشتاء طرق المجيء مسكرة
وطرق السفر يقف عليها أناس كثيرون
لا يكون، لا يضحكون، إنهم مسافرون
وعصافير تنتظر موكب الريح

بعد ذلك يعبّر زياد الرحباني فى أكثر من قصيدة عن عدم حبّه للذهاب إلى المدرسة:
يوم أذهبه إلى المدرسة أحسه سفراً يا أمي

وتتجلى علاقة زياد بوالديه في مقطع يقول فيه:
كيف أُفهمك يا عصفور قفصنا، إنني أنا غير أهلي، لا أحبّ أن أقتني لا أقفاصًا ولا عصافير.

في النص السابع، يلاحظ قارىء المجموعة أن صورة الأم تتشكّل

قالت أمي: سنذهب معًا، خذ السلة
وأنا لا فرحة لي أكبر من أن أحمل السلة
مشينا، السماء سكرت من لونها الأزرق، ولبست لونًا رماديًا
ونزلنا إلى الجلالي علّنا نجد عنبًا
ووجدنا عنقودًا واحدًا، والريح تسقط حبوبه واحدة بعد واحدة.

وفي النص الحادي والعشرين، يقول:

لو عددتُ ضحكات أمي لي
لرافقتني طوال صعودي
ووقعتْ من بعدي الضحكاتُ على الدرج
وأزهرت زهراً

ثمة نقّاد لاحظوا غياب والد زياد في كلماته إلا في قصائد معدودات، في الوقت الذي نجد حضور طاغيًا لوالدته، والتي عبرها يكتشف العالم ويتحسس تفاصيله، يسألها دائمًا ويحكي لها ما يراه ويشعر به. وثمة من قال إن زياد انتبه لاحقًا إلى أنّ أكثر الأفكار التي كتبها موّجهة إلى أمّه، لكنه لم يتنبه إلى أن اللّٰه صديقه الذي خاطبه في هذه القصائد هو أبوه.

لفتت هذه النصوص الانتباه إلى موهبة أدبية واعدة، كانت تُبشر بولادة شاعر متمكّن، لولا أن اختار لاحقًا تكريس طاقته بالكامل

وكتب الناقد إبراهيم اليوسف: "وحيث أن الديوان لم يُنشر كما يجب، وغابت عنه القراءة النقدية، فلا بد من إنصافه بوصفه واحدة من أكثر التجارب النثرية صدقًا وتفوقًا في بيروت الستينيات، في مناخ كان يُنتج فيه الكبار قصائدهم ويعيدون هندسة اللغة. غير أن هذا الصبي أتى بلا إعلان، كتب وذهب، وترك كتابه شاهدًا. ومن هنا فإن ديوان "صديقي اللّٰه" ليس توثيقًا لصوت طفل، بل بلاغاً شعرياً عن عجز العالم وعبقرية الصمت. بهذا، يثبت أن الشعر الحقيقي، خارج بروتوكولاته وشروطه المسبقة لا يُقاس بالسنوات، بل بقدرة المفردة على أن تسكن بيتاً فيه سرير وصورتان وخبز وماء، لا غير".

.

(*) قصيدة "هوَت سنونوتي" في مسرحية "بالنسبة لبكرا شو":

هوت سنونوتي على
الرماد
تناثرت صوراً
وأوراق اعتماد
كانت الساعة
الرابعة وقتئذ
وكنت أحادث

وتأخرت عن عرس الهضم
ولكني مهما مهما
سأنجب لك ولداً
أخضر يا سنونوتي
وأبعثه عميقاً في
البلاد
كالنعناع أبغضكم
وكالزوفى
كمشاعر اليانسون
العادية جداً على رصيف بحيرة المجد
إنها أوهام مضادة
للطائرات
زفّ النسيم ما
بين دجلة والفرات
كدت أن .. ولكن
.. وسقطت
من سقطت؟ هذه
نفرتيتي
سقطت نفرتيتي..
سلي الجيَّف يا
سنونوتي الكحلية
وتوقفي في جسدي
عند تقاطع السكك الحديدية

حوّل
وكلما نهشك القرن
العشرون بّدل
وتنصت إلى هديل
الموج في ازدحام المتوسط عجّل
إني أرسل عبر
جهاز اللاسلكي
بعضاً إليَ
وبعضاً لألكِ
...متعاقب أنا
متعاقب أنا في
أصل الصورة
عاهدت اللوز
والأشياء الُأخر
بأنني على قرميدك
المهزلة
سأمتطي
أمتطي.....أين
أمتطي؟
متعاقب أنا فيك
.. يا أينك
يا أينك من أصل

يا أينك يا بهية
هل ضاجعك الهاتف
وسط الرياح المنافقة؟؟
اخلعني عني يا
فجر المسامير وأغرق
أغرق بعيدًا في
أصل الصورة
إنها المهزلة
الأخيرة
ساورتني شكوك
الصوف
ساورتني شكوك
الصوف وكان هيلاسيلاسي جاثماً على باب المستودع
مهلًا زهرة
الناريت ..
أبرق لهم وقل لهم
حذار زهرة الناريت
حذار شكوك الصوف
معذور أنا أفلا
تعذريني؟
أفلا تعذريني بعد
أن سقطت حتى الأزل

صورة الأصل من
أصل الصورة
أخلع عنك هذه
السلاسل المشبوهة
فإن اللون السابع
بعد الألف أورجواني
ثديك الحبق عبق
أيا نهلة
مدّ وجزر بات
الورى يا مرحباً أهلًا وسهلًا.

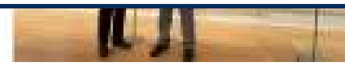
الأكثر قراءة



أليس أوزوالد وسالي روني: كاتبتان إرهابيتان



سهيل إدريس: تمرّ ذكرى مئوية ولادته في بيروت بصمت وخجل





"المدن" تنشر فصلًا من"قصر موال" للفرانكو-لبنانية دومينيك إده

تابعنا عبر مواقع التواصل الإجتماعي

إشترك في النشرة الإخبارية ليصلك كل جديد

اشترك معنا في نشرة المدن الدورية لتبقى على اتصال دائم بالحدث

جريدة إلكترونية مستقلة .. وفي رواية أخرى